﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هـذه الآيـةُ امتدادٌ للآيتَينِ السّابقتينِ عليها

لَمّا بيَّن تعالى في الآيةِ السّابقةِ أثَرَ القرينِ في العاشِي عن ذِكْرِ اللّه، وهما في الحياةِ الدُّنْيا؛ بيَّنَ حالَهُما في الحياةِ الآخرةِ، وأنَّ الشَّيطانَ لن ينفَع هذا العاشِيَ بشيء، بل إنَّه سَيُقِيمُ الحُجَّةَ عليه، بحضوره معَه، وأنَّ الكافر مُتندِّمٌ على ما فرط من اتِّباعِه إيّاه، وائتمارِه بأمْرِه، فهذا المَشْهَدُ مُقابِلٌ للمَشهدِ الَّذي تُقرِّرُه الآيةُ السّابِقَةُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: المشرقان مثنى المشرق، وهو المقابل للمغرب، وهما قِسْما الكون، فالمشرق مكان شروق الشَّمس، والمغرب مكان غروبها في الأفق، وإنَّما سُمِّي المشرق والمغرب مشرقين؛ تغليبًا للمشرق على المغرب، كما قيل: (العمران) في الصَّحابيَّين الجليلَيْن أبي بكر وعمر - ﷺ - هذا هو الظاهر، وقد قيل: عنَى القرآن بقوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ مشرق الشِّتاء ومشرق الصَّيف؛ وذلك أنَّ الشَّمس تطلع في الشِّتاء من مشرق، وفي الصَّيف من مشرق غيرِه، وكذلك المغرب، تغرب في مغربين مختلفين، وعلى هذا لا تغليب[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يـوم القيـامة تنكشفُ للكافر حقيقةُ قرينِه

يقول تعالى: حتّى إذا جاء الكافرُ مع قرينه، وقد رُبِطا بسلسلة واحدة؛ قال الكافرُ لقرينه: يا ليت بيني وبينك مِثْلَ ما بين المشرقِ والمغربِ، فبئس الصّاحبُ أنتَ؛ لأنَّك كنتَ سببًا في شقائي بتزيينك الباطلَ لي، فيكونُ الكافرُ في حالٍ شديدةٍ مِن النَّدَم والتَّحسُّرِ.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شرك).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بـ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

القرائنُ تشهدُ بدلالة (حتَّى) هنا على الغاية الحقيقيَّة

جاءت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيَّة، أي: تدلُّ على انتهاء مرحلة، وابتداء مرحلة أخرى، وهي تفيدُ التَّسبُّبَ الذي هوَ غايةٌ مجازِيَّةٌ؛ فاستعمالُ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فيه استعارةٌ تبعيَّةٌ، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ الغايةَ الحقيقيَّةَ قد تُفارقُ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ فلا تكونُ فيها في جميعِ حالاتها، وأنَّ قومًا يزعمون أنَّها لا تُفارقها في جميعِ استعمالاتِها، وأخَذَ هذا مِن فهْمِه أنَّه ليس في الآية دلالة على دوام الصَّدِّ عن السَّبيل، وحسبانِ الآخرين الاهتداء إلى فناء القرينيْنِ؛ إذ قد يُؤمن الكافرُ، فينقطعُ الصَّدُّ والحسانُ، وذهَب غيرُه مِن العلماء إلى دلالتها هنا على ذلك، وأنَّ حالَ الأعشى مع القرين، وهو يصُدُّه عن سبيل الله، ويحسبُ أنَّه مِن المهتدين؛ ظلَّ ممدودًا زمانًا بعدَ زمانٍ، ولم تُنبِّهْهُ حادثةٌ، ولم تُثِرْ يقظتَه لفْتةٌ لا في الأرض، ولا في السَّماء، ولا في نفْسِه، ولا فيما يُتلى عليه مِن الذِّكْر، وإنَّما كانَ ينظُر إلى الذِّكْر بعينٍ حولاء أو عينٍ عوراء، معَ أنَّ الذِّكْرَ هو اللّافِتُ إلى آياتِ الله في السَّماء، وفي الأرض، وفي أنفسكم، وفي الطَّيْر، والذي حَولتْ عينُه عن الذِّكْر؛ عوِرَت عينُه عن كلِّ شيء بعدَه، وقد ظلَّ الأعشى على هذا الحالِ الَّتي يُمْلَى له فيها، ويُستدرَجُ على طول حياته، حتَّى ترك الدُّنيا وراءَه، وأقْبَلَ على حياة الجزاء والثَّواب والعقابِ، وصوتُ الذِّكْر الَّذي هو القرآنُ لم ينقطع عنه، وهو في الدُّنيا، ويؤيِّدُ هذا الفَهْمَ أنَّ السِّياقَ في الحديثِ عن الَّذي ظلَّ يُحيط به الشَّيطانُ مِن جهاته كلِّها إحاطةَ القيض بالبيض، ويملكُ عليه كلَّ منافذِه[1]، وكذلك يؤيِّده مِن سياقِ السِّباقِ البعيدِ أنَّ هؤلاء هم القوم المسرفون في الكُفْرِ الَّذين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 367 - 368.

افتُتحت السّورة بالحديث عنهم، والألصقُ بإسرافهم أن يكون في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا هذه الدَّلالة الَّتي أنكرها العلّامة ابن عاشور، ومِن سياقِ اللِّحاقِ القريب يُؤيِّدُه قولُه: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾، فذلكَ نَصٌّ في ديمومةِ هذا العاشِي على سوء الحال مع قرينِهِ حتَّى باغتَه الموتُ.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾:

كلمةُ ﴿إِذَا﴾ أداة شرط في الاستقبال، فالأصلُ في الفعل بعدها أن يكونَ مضارعًا؛ والشَّرطُ معَها مقطوعٌ بوقوعِه بخلافِ (إنْ)؛ ولهذا يكونُ فعلُ الشَّرط معها ماضيًا في اللَّفظ، وإن كانَ مستقبلًا في المعنى، ومجيءُ كلِّ أحدٍ للحسابِ يومَ القيامةِ أمْرٌ مُحقَّقٌ مقطوعٌ به، وإن كانَ الكافرُ يُنْكرُه، فـ﴿إِذَا﴾ هنا تُحقِّقُه، وكذلكَ الأحداثُ الَّتي تكونُ في هذا اليوم وما بعدها مِن دخولِ الجنَّة والنّارِ إلخ؛ فلهذا عُبِّر بـ: ﴿إِذَا﴾ دونَ: (إنْ).

القطعُ بوقوعِ الشَّرط يُحرِّكُ النَّفْسَ؛ للتَّفكيرِ فيه، وإن كانَت تُنكِرُه

علَّةُ التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصِيغَةً:

عبَّر القرآنُ عن إتيانِ الكافرِ اللّهَ ربَّه يومَ القيامةِ للحسابِ وما بعدَه، بالمجيء الَّذي هو في اللُّغة إتيانٌ بصعوبةٍ، وإتيانٌ فيه نفاذٌ، فكأنَّ التَّعبيرَ بالمجيء ينظر إلى إنكار الكافر إيّاه، فهو يقولُ له: إنَّه مُتحقِّقٌ - لا محالة - وكذلك أكَّدَه بالتَّعبيرِ بـ: ﴿إِذَا﴾ مِن جهةٍ، ويشيرُ إلى خطر هذا الإتيانِ؛ إذ يعقبُه الحسابُ الإلهيُّ، ومشاهدةُ الأهوالِ، وغيرُ ذلكَ مِن أحداثِ القيامة، ثم دخولُ النّار، ثم الحوارُ بينَه وبينَ قرينِه الشَّيطانِ، ونُظِم المجيءُ فعلًا ماضيًا؛ إبلاغًا في بيانِ تحقُّقِ حصولِ الشَّرْطِ، بعدَ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيد تحقُّقَ وقوع الخبر، فهو ماضٍ في اللَّفظ، مستقبلٌ في المعنى، بقرينة كلمة الشَّرط: ﴿إِذَا﴾.

هـذا التَّعبيرُ مناسِبٌ لِما يواجِهُه الكافرُ مِن مَشقّاتٍ وحسَراتٍ

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي: ﴿جَآءَنَا﴾، والإفرادِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿جَآءَنَا﴾ قرأه بألفٍ بعدَ الهمزة على التَّثْنيةِ نافعٌ وابنُ

الأعشى عن ذِكْر اللـه في الدُّنيا أعشى في الحياة الآخرة

كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ وأبو جعفرَ: ﴿جَآءَنَا﴾، قال مقاتل: يعني: ابن آدم وقرينه في الآخرة، جُعِلا في سلسلةٍ واحدةٍ، وقرأه الباقون بغير ألف؛ حملًا على لفظِ: (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: الكافر؛ لأنَّ الَّذي يقولُ هو الَّذي ضَلَّ، وكفَر، ولأنَّه هو رأسُ الكلام، وذهَب ابن عاشور إلى أنَّ المعنَى على القراءتَيْنِ واحدٌ؛ لأنَّ قراءةَ التَّثْنية صريحةٌ في مجيء الشَّيطان معَ قرينه الكافر، وأنَّ المُتندِّمَ هو الكافرُ، والقراءة بالإفراد متضمِّنة مجيءَ الشَّيطان مِن قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ إذ عُلِم أنَّ شيطانَه القرينَ حاضرٌ مِن خطابِ الآخَرِ إيّاهُ بقوله: ﴿وَبَيْنَكَ﴾[1].

ولكِنْ في القراءتَيْنِ تفصيلٌ لمشهدِ حضورِ العاشي عن ذِكْرِ اللهِ وقرينِه الشَّيطانِ يومَ الجزاءِ، ففي قراءةِ التَّثْنية: تنبيهٌ على ملازمة الشَّيطانِ الَّذي ثبَّتَه في بابِ الضَّلالِ والغوايةِ والانصرافِ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، له في هذا اليوم، وأنَّ حُضورَه معَه في سِلْسِلةٍ واحدةٍ مِمّا يُتْعبُه، ويُؤلِمُه، وأنَّه لن ينفَعَه أدنى نفْعٍ حينئذٍ معَ أنَّه كانَ قرينًا له في الدُّنْيا؛ كذلكَ النَّعيمُ الَّذي كان غارقًا فيه، وسلك به مسالك الفجور والمعاصي، وكذلك آباؤهم الَّذين وجدوهم على أُمَّةٍ، وكانوا على آثارِهم مهتدين ومقتدين، لن ينفعوهم بشيء، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الإفرادَ على قراءة: ﴿جَآءَنَا﴾، وفي قوله: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى﴾، أدلُّ دليلٍ على تناوُلِ كلِّ فرْدٍ، وأنَّ المرادَ حكايةُ مقال كلِّ واحدٍ واحدٍ مِن العاشِينَ لقرينِه؛ لتهويلِ الأمْرِ وتفظيعِ الحالِ[2].

بلاغةُ أسلوب الشَّرْط:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ جوابُ الشَّرطِ،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 369، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 496، والواحدي، التفسير البسيط: 20/ 43، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212 - 213.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 80.

هـذا الأسـلـوبُ يُـصـوِّر جـلادَ الموقف

تولَّدَ منهُ بالفاءِ قولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، وترتُّبُ الجوابِ على الشَّرطِ هنا، معَ وجودِ جملةٍ مِن المعاني، الَّتي تُصوِّر الأحداثَ الَّتي تكونُ بينَ المجيء وهذا القولِ، قد طواها السِّياقُ طَيًّا، يقولُ الشَّيخ محمَّد أبو موسى: إنَّ "كلامًا كثيرًا وأحداثًا كثيرةً حُذفت بينَ الشَّرط وجوابِه؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يكونَ قبلَ قولِه: ﴿قَالَ﴾: حوسِبَ، وأخَذَ كتابَه بشماله، ووجَد ما عمِل حاضرًا، وقبلَ أن يُحاسَبَ شَهِد هولَ الموقفِ، وهولَ يوم التَّناد: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: 33]، وهولَ الصِّراط، وقبلَ هذا شهِد هولَ الفزعِ يومَ يُنفخ فيه أخرى، وشهِد هولَ الموتِ إلى آخره، وإنَّما تخطَّت الآيةُ هذا كلَّه؛ لأنَّها تُلخِّصُ، وتذكُر نتائجَ سريعةً لمَن اتَّخَذ هذا القرآنَ مهجورًا، وفرِح بالحياة الدُّنيا، واطمأنَّ بها، وفرِح أيضًا بما عندَه مِن العِلم؛ لأنَّ جذرَ القضيَّةِ أنَّه سبحانه متَّعَ هؤلاءِ وآباءَهُم حتَّى استطابوا هذهِ الحياةَ الدُّنيا، وكفروا بالحقِّ؛ لمَّا جاءَهُم، وصرَفَهُم انصرافهم إلى الدُّنيا عن التَّفكُّر والتَّذكُّر والتَّدبُّر للذِّكر، الَّذي لم يَصرِفه اللهُ ﷻ عن القوم المسرفين"[1].

دلالةُ القولِ مادَّةً وصِيغةً:

مَـن ليس يملكُ إلّا الـقـولَ، فهو في غاية الضَّعْفِ

جَوابُ الشَّرْطِ في الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، وفي حكاية قولِه إشارةٌ إلى أنَّه لا يملكُ في هذا اليومِ إلّا القولَ، فلا حيلةَ له ولا ناصرَ ولا مُعتمَد، مِن مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو متاعٍ أو شيطانٍ قرينٍ، ونظَمَه القرآنُ فعلًا ماضيًا: ﴿قَالَ﴾؛ تأسيسًا على نَظْمِ المجيء فعلًا ماضيًا، فهو مِثْلُه، ماضٍ في اللَّفظِ، مستقبلٌ في المعنى؛ لأنَّ أجزاءَ جملةِ جوابِ الشَّرط، تجري على حُكْم أجزاءِ جملةِ الشَّرْط، والمُضِيُّ فيهما إبلاغٌ في التَّرْهيبِ، ودالٌّ على حتميَّة الوقوع والتَّحقُّق.

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 368 - 369.

علَّة التَّعبير بـ: (يا):

في هذه الكلمة كمالُ الإحساسِ بالضَّياعِ والهلاكِ

(يا): حرفٌ معنًى، وُضِعَ للنِّداءِ، وهو لنداءِ البعيدِ عند جمهورِ العلماءِ، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، يُمكنُ أن يكونَ قد تخلَّصَ إلى معنى التَّنبيهِ؛ ليلفتَ إلى هذا التَّمنِّي الَّذي صار حَسْرةً وتندُّمًا، ويُمكنُ أن يكونَ حرفًا دالًّا على التَّلهُّفِ والتَّحسُّرِ، ويكونَ قد تشرَّبَ مِن الكلمة: (ليت) بُعدَه، وأشرَبَها، ويُمكنُ أن يكونَ حرفَ نداءٍ، وأنَّه يُنادِي ندمَه كالَّذي نادَى حسرتَه في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31]، وكلُّ هذا يلتقي عندَ الدَّلالة على هولِ ما رآهُ، وفوجِئَ به مِن الأهوال؛ بسببِ هذا القرين.

دلالةُ التَّعبير بـ: (ليت):

خَيْبةُ الرَّجاءِ شأنُ العاشِي عن ذِكْرِ اللهِ في الآخرةِ

كلمة (ليت) وُضِعتْ في اللُّغةِ للتَّمَنِّي الَّذي هو تشهِّي حصولِ الأمر المرغوبِ فيه، وحديثُ النَّفْسِ بما يكونُ، وما لا يكونُ، ولم تُستعمل في غير التَّمنِّي، فكانت عريقةً في التَّمنِّي، والمُتمَنَّى هنا هو البُعدُ بين هذا الكافرِ وقرينه الشَّيطان في الدُّنيا، وهو مستحيلٌ؛ لأنَّ زمانَ التَّمنّي الدّارُ الآخرة، وزمانُ الَّذي يتمنّاهُ الدّارُ الدُّنيا، ولَمّا كان هذا التَّمنِّي لا انتفاعَ له به؛ لفواتِ محلِّه - وهو دارُ العملِ - كانَ دالًّا على غايةِ التَّندُّمِ والتَّحسُّرِ[1].

نكتةُ تقديم ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾:

هذا التَّقديمُ توطئةٌ لذَمِّ الاقتران

قوله تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ خبرُ قوله: (ليت)، وأمّا اسمُها؛ فقوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، وإنَّما قدَّم القرآنُ خبرَها على اسمِها؛ للعنايةِ والاهتمامِ به، ووجهُ ذلكَ أنَّ المُقدَّم هو لُبُّ المعنَى، وجوهرُ المقصودِ، وأصلُ الكلامِ: يا ليت البُعد الَّذي بيني وبينك بُعد المشرق

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 4/ 804، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.

مِن المغرب، يعني مشرق الشَّمس مِن مغربها، وهو أبعدُ البُعدِ[1]، فلَمّا كانَ اقترانُ الشَّيطانِ به هو الَّذي ضيَّعَه، وأهلكَه؛ لأنَّ هذا الشَّيطانَ قد أضلَّه، وصدَّه عن سبيلِ الهُدى والحقِّ؛ قدَّمَ طَرَفَي الاقترانِ: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ على ما بعدَه؛ ولهذا فرَّع على جملة التَّمنِّي قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، ولمّا كان الكافرُ القائلُ في مقامِ ضررٍ شديدٍ مِن قرينِه الشَّيطانِ؛ قدَّم القرآنُ قوله: ﴿بَيْنِي﴾ على قوله: ﴿وَبَيْنَكَ﴾.

علَّة التَّعبير بـ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

تمنّيه ضدَّ غايةِ القربِ دليلٌ على غايةِ العَمَى

المشرقان في قوله تعالى: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: هما المشرقُ والمغربُ، والمرادُ بهما إمّا مكانُ شروقِ الشَّمسِ وغروبِها في الأفق، وإمّا الجهةُ مِن الأرضِ الَّتي تبدو الشَّمسُ منها عندَ شروقِها، وتغيبُ منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة مِن سُكّانِ الأرضِ، وعلى الاحتمالَيْنِ هما مَثَلٌ لشدَّةِ البُعْدِ، وبهما تحصلُ المبالغة في حصول البُعْدِ؛ إذ لا بُعْدَ آخَرُ أزْيَدُ مِن بُعْدِهما[2]، وقد كان الشَّيطانُ شديدَ القرب منه، بل كانَ محيطًا به إحاطةَ القيضِ بالبيضِ، على ما يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالتَّقْييضِ في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ﴾.

نكتةُ التَّغليب في: ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

التَّغْليبُ يكشفُ عن حسرة الكافر وندمه على ترك نور الله في الأرضِ

قولُه تعالى: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، لكنَّ القرآنَ غلَّبَ اسمَ المشرق على اسم المغرب، كما يُقال: (الأبوان) للأب والأُمِّ، و(العمران) لأبي بكر وعمر، وسِرُّ التَّغليب عند الشَّيخ ابن عاشور: "أنَّ المشرق أكثرُ خطورًا بالأذهان؛ لتشوُّفِ النُّفوسِ إلى إشراق الشَّمس بعد الإظلام"[3]، وهذه علَّة جيِّدةٌ، وإنْ كانت عامَّةً، بحيثُ تُقال في كلِّ سياقٍ، وذكَر الشَّيْخُ أبو موسى ما هو ألصقُ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.

بالسِّياقِ والمقامِ، فذكَر أنَّ المشرقَ ضياءٌ ونورٌ وهدايةٌ، وكلُّ ذلك يعصِمُ المعتصِم بعقله مِن التِّيهِ والضَّلالِ، وذلك بخلافِ المغرب، فإنَّه بدايةُ الظَّلامِ، وفي الظَّلامِ تِيهٌ وضَلالٌ، ولا يَحْسُن أن نُبعِد هذينِ المعنيينِ عن المشرق والمغرب، والكافرُ جعَل نفْسَه في المشرقِ، وجعَل القرينَ في المغربِ، يعني: أنَّه كانَ في موضِعِ الضِّياءِ والهُدَى؛ لأنَّ الذِّكْرَ الَّذي هو القرآنُ نورُ اللهِ في الأرضِ، يهدي به مَن يشاءُ؛ لم يُصْرَف عنه، والكافرُ قد أدركَ هذا، وهو في الآخرة[1].

بلاغةُ الإضافة في: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

لَمّا غلَّبَ القرآنُ المشرقَ على المغربِ؛ أوجزَ، وأضافَ البُعْدَ إليهما، وقال: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، والأصلُ: البُعْدُ الَّذي بين المشرقيْنِ، وهذا إيجازٌ بديعٌ، وهذه الإضافةُ بتقدير: بُعْدًا لهما، أي: مختَصًّا بهما بتأويل البُعْدِ بالتَّباعُد، وهذا الإيجازُ مبنيٌّ على الإيجازِ الحاصلِ بالتَّغليبِ، والتَّقديرُ: بُعْدَ المشرقِ مِن المغربِ، والمغربِ مِن المشرقِ، فنابَتْ كلمةُ: ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ عن ستِّ كلماتٍ، وإنَّما اختُصِر هذا المبسوطُ؛ لعدمِ الإلباسِ[2]، وهذا الإيجازُ يُصَوِّرُ غايةَ الضِّيقِ والكَرْبِ الذي يكونُ فيه هذا الكافرُ العاشي عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ.

الـكـافـرُ في خسران شديد، يتمنّى فيه كلَّ البُعد عن سبب خسرانه

معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: فيها معنى السَّببيَّةِ والتَّفريعِ[3]، ومعنى الجملةِ بعدها مُسبَّبٌ عن قولِه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ وهذا يعني كمالَ الحَسْرةِ والنَّدَمِ الذي يكونُ فيه العاشي عن ذِكْرِ اللهِ، وكمالَ انفعالِه وإحساسِه بذلكَ، ولو غابت الفاءُ، فقيل: (بئس القرين)، على أنَّه لازمٌ لِما قبله،

في الآخرة يُدرك الكافرُ بأنَّ أذى الشَّيطانِ له بالغٌ جدًّا

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370 - 371.
(2) الزمخشري، الكشاف: 14/ 143، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 82، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 430، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.

فهو مِن بابِ كمال الاتِّصال؛ لفاتَ بيانُ ذلك، وكذلك يفوتُ لو عُبِّر بالواو، فقيل: (وبئس القرين)، وكما قرَّرَ سياقُ السّورة غفلةَ هذا العاشي في الدُّنْيا، يُقرِّرُ يقظتَه ووعْيَه وإفاقتَه في الآخرة، وإن كانَ ذلكَ لا ينفعُه.

علَّةُ التَّعبير بـ: (بئس):

هـذه الكلمة سخيَّةُ الموقعِ، مكتنزة المعنَى

عبَّر القرآنُ بكلمة الذَّمِّ: (بئس) في قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، وهيَ أُمُّ كلماتِ الذَّمِّ، فالذَّمُّ فيها صريحٌ مُكْتَنَزٌ، فيُعبَّرُ بها؛ للمبالغة في الذَّمِّ[1]؛ لأنَّها في جُمْلَتِها نِتاجُ استحضارِ الكافرِ العاشِي عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ ما كانَ مِن قرينِه الشَّيطانِ في الدُّنْيا مِن بالغِ إضلالِه وعظيمِ إيذائه، حتَّى إنَّه يتمنَّى في الآخرة أن لو كانَ بعيدًا عن هذا الشَّيطانِ غايةَ البُعْدِ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، فهذه الكلمةُ (بئس) صوَّرَتْ غايةَ حُرْقةِ الكافرِ، وحسرتِه وندمِه، وذلكَ في غايةِ الإيجازِ، ممّا يدلُّ على غايةِ ضجرِه وضِيقِ نفْسِه.

علَّةُ التَّعبير بـ: ﴿ٱلْقَرِينُ﴾:

غايةُ الحسرة والنَّدم والوجع في ذِكْرِ الصُّحْبةِ القديمةِ المُضِلَّةِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلْقَرِينُ﴾: فاعلُ: (بئس)، فهو المذمومُ، والمقصودُ بالذَّمِّ هو صفةُ الشَّيطانِ مِن الاقترانِ الذي في كلمة: ﴿ٱلْقَرِينُ﴾؛ فإنَّه لَمّا تمنَّى هذا الكافرُ البُعْدَ الشَّديدَ بينَه وبينَ الشَّيْطانِ في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ فكانَ هذا البُعْدُ محبوبًا يتمنَّى الكافرُ أن لو كانَ قد تحقَّقَ في الدُّنيا؛ ذمَّ غايةَ القُرْبِ في قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، فكان المذمومُ هو الاقترانَ الذي كان بينه وبين الشَّيطان في الدُّنيا؛ لهذا وُضِعَ الاسم الظاهرُ: ﴿ٱلْقَرِينُ﴾ موضِعَ ضمير المخاطَب الَّذي جرَى عليه الخطابُ في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، وقد جرى في هذا الاسمِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 372.

الظّاهرِ شَوْبٌ مِن معنَى التَّجْريدِ، وأنَّه لشناعته وسوئه؛ صَحَّ أنْ يُجرَّدَ منه قرينٌ، هو بئسَ القرينُ[1].

بلاغةُ المخصوصِ بالذَّمِّ تقديرًا وحذفًا:

الحـذفُ إبـلاغٌ في إفـادة كمال حسرته وشـدَّة نـدمـه؛ لأنَّ الشَّيطانَ قرينُه في القيامة أيضًا

المخصوصُ بالذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: محذوفٌ، والتَّقديرُ في الظّاهر: (فبئس القرينُ أنتَ)[2]؛ جريًا على نسَق الخطابِ مِن قبلُ في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ وهذا هو الأبلغُ في السِّياقِ مِن أن يكونَ التَّقديرُ: (فبئس القرينُ هو) على طريق الغَيبة؛ انصرافًا عنه، ضجرًا وضيقًا وغضبًا وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنَى، ووجهُ الأبلغيَّةِ أنَّ هذا الكافرَ قد أدرك، وعلم أنَّ هذا الشَّيطانَ الَّذي كانَ قرينًا له في الدُّنيا، قرينٌ له في الآخرة في محلِّ عذابه وعقابه، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، فكان المعنى: فبئس القرين أنتَ في الدُّنيا، وبئس القرين أنتَ في الآخرة، فالخطابُ مستمرٌّ، وحذفُ ضميرِه: (أنت) إبلاغٌ في الذَّمِّ، بالإبلاغِ في تقريرِ الاقترانِ؛ اعتمادًا على نَسَقِ الخطابِ، ونتَج عن الحذفِ توفُّرُ الانسجام الصَّوتيِّ بين الفاصلة: ﴿ٱلْقَرِينُ﴾ والفواصلِ قبلها وبعدَها.

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 372.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 44، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 211، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 82، فهؤلاء المفسرون قدَّروه بـ: (أنت)، وذكر الآلوسيُّ تقديرًا آخر، فقال: "وقيل: أي: هو، على أنَّه مِن كلامه تعالى، وهو كما ترى"، انتهى مِن: الآلوسي، روح المعاني: 25/ 82.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"